مجلة إشكالات في اللغة والأدب | مجلد: 13 عدد: 2، يونيو 2024
ص: 143 - 156 | E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الكرامة الصوفية والعمل الروائي: اعتقاد إيديولوجي وترميز تجريبي
مقاربة نقدية في رواية ما تشتهيه الروح لعبد الرشيد هميسي

Sufi Dignity and Novelistic Work : Ideological Belief and Experimental Coding - A Critical Approach in the Novel of "What the Soul Desires" by Abd al-Rashid Hamisi-

د. منيرة نوري[1] * / د. صليحة تباني[2]
Mounira Nouri[1] / Tebbani Saliha[2]
مخبر علوم اللسان جامعة جامعة عمار ثليجي الأغواط(الجزائر)[1]
مخبر الدراسات الأدبية والنقدية، جامعة لونيسي علي البليدة 2 (الجزائر)[2]
University of Amar Thaliji Laghouat (Algeria)[1]
University of Lounici Ali Blida 2 (Algeria)[2]
mounimouni2828@gmail.com[1] / tebbanisaliha@gmail.com[2]

تاريخ الإرسال: 2023/08/07	تاريخ القبول: 2024/03/20	تاريخ النشر: 2024/06/02

ملخص البحث

تنضوي النصوص السردية؛ سيما النص الروائي على آليات تجريبية ورؤى فكروية، تتشكل على إثرها مواقف حياتية بين واقع مستهجن وخارق مذهل، في فسحة زمنية تبعث على انتهاك المحظور وترويضه، لتكون الكرامة إحدى السبل الصوفية العجائبية التي اعتمدها الروائيون المعاصرون، لتوليد الرؤى الفنية وإضفاء الطابع الغرائبي على العمل السردي، للدفع بالمتلقي إلى متاهات زمنية تواترية.

وفي إشكالية مسطرة تعضد المحكي، وتكشف غياهب المعقولية، ترنو دراستنا إلى استكناه كرونولوجيا العلاقة بين الكرامة الصوفية والعمل الروائي، ومدى فاعلية الرمز الصوفي في تلاعباته السردية في استنساخ البعد الأسطوري للتجربة الروائية، وفتح باب التأويل والقراءة.

الكلمات المفتاحية: رواية صوفية، اعتقاد، ترميز، تجريب، ما تشتهيه الروح، عبد الرشيد هميسي.

Abstract :

Narrative texts, especially the novelistic text, are based on experimental mechanisms and intellectual visions, as a result of which life situations are formed between a reprehensible reality and an amazing supernatural in a space

* د.منيرة نوري: mounimouni2828@gmail.com

of time that leads to the violation of the forbidden and its taming, so that dignity is one of the miraculous Sufism methods which adopted by contemporary novelists to generate artistic visions and impart an exotic character on the narrative work to push the recipient into recurrent temporal mazes.

In an underlined problem that supports the narrative, and reveals the mists of plausibility, our study aims to devise the chronology of the relationship between Sufi dignity and novelistic work, and the extent of the effectiveness of the Sufi symbol in its narrative manipulations in reproducing the mythical dimension of the novelistic experience and opening the door to interpretation and reading

Keywords: Sufi novel, belief, coding, experimentation, What the soul desires, Abd al-Rashid Hamisi

توطئة:

يستدعي المنجز السردي إضاءات تجريبية يتخذها الروائي منحى رؤيويا صوفيا، يسوغ لدلالات وجدانية ترتقي لمقامات الخلوة النفسية، في لغة رامزة تنبثق من عمق الذات الإنسانية لمعرفة الوجود والحقيقة خارج الحدود الواقعية، ممتزجة بالخيال في تجربة روحية منفردة، تستند على مرجعيات ثقافية وفكرية وتراثية، تموضع ضمن رؤى فنية يعمل الروائي على استظهارها واستنباط مكامن الجمالية فيها.

فاللجوء إلى التجربة الصوفية دليل على أن الروائي يستلهم إيحاءاته الترميزية من واقعه الديناميكي؛ الذي يفرض عليه تشكيل رؤى معرفية للغوص في غياهب التجريب، ليخترق الفن الروائي في وعي حداثي يمزج بين الإبداع والتجريب، فتتشكل بذلك "ثنائية يحكمها التعالق الجدلي والتكامل، فالتجريب المستمر هو ما يهب الكتابة شرعيتها أو تبريرها، وذلك لما يتوفر عليه من سمات فذة وآفاق غير محدودة، تعود في جوهرها إلى طبيعته الباحثة باستمرار عن المغاير من أشكال الكتابة الروائية"[1]، التي تسعى إلى تهشيم ثبوتية الجاهز، وإنشاء عوالم متخيلة تبعث على العبق الروحي والنفحات الصوفية، بدلالاتها الترميزية ومرتكزاتها العجائبية ذات المحمولات الغامضة المجردة.

تجسدت ملامح الكرامة الصوفية في رواية ما تشتهيه الروح، التي استشفت بدلالات مكثفة ومسميات صوفية، ظفر بها المعجم اللغوي الترميزي؛ الذي يحيل على تشبع الروائي بالثقافة الصوفية، إذ جعل شخصيات روايته تتعالق مع رجال الصوفية، ما يستدعي قارئا متميزا متمرسا على التأويل وفك الشفرات، لأن النص الروائي الصوفي منفتح على الغريب والمدهش.

الكرامة الصوفية:

تتبدى الكرامة الصوفية في النصوص الروائية في طابع قداسي مفعم بالمشاعر الإنسانية، إلا أن تجربة عبد الرشيد هميسي يعتريها التناقض، وتتقاذفها الرموز والطلاسم، التي تستدعي "السمو والارتفاع بالنفس البشرية فوق تفاهة الحياة اليومية، واهتمامات العالم الدنيوي؛ الذي لا يرى من حياته سوى يومه المحدود بالزمان والمكان ونفس المهمة يحاولها الأديب"[2] محاولا الربط بين الصوفية والحداثة في صبغة سريالية تتصل بالتنبؤ والوجود، لتبلغ أسمى السعادة الروحية؛ التي يدوّنها شيوخ التصوف، من خلال كرامتهم بوصفها مِنحًا ربانية تقدم فروض الولاء للمريد، انطلاقا من الواقع المحتقر، لتخرق عوائده وتستكشف المجهول، فتستلهم استجابة العامة في خطى عفوية تدل على صدق الولي وصحة قوله في تكييفه للمجتمع، وتقديمه للبديل، ليرمم الخرق المجتمعي في حاجاته الفكرية والثقافية، التي تروض النفوس على الفضائل، وتوظف الامتساخ والتحويل، لينتقل الفعل إلى العجائبية الصوفية، لما له من انطباع خوارقي فـــ" القصص الكرامية تصور العلاقات الاجتماعية، وتعكس الرغبة في رأب التمزق داخل الصوفي، وفي تبرير اغترابه وروح الهجران فيه، فقمة مأساوية هذا أنه يترك أهله ووطنه، ويرفض ذاته التاريخية على حساب أن يكون "ابن وقته" .

وعلى صعيد نظري فلسفي؛ "أن الكرامة تعبير عن تفجر من قلب الكبت والقهر تفجرا مشحونا بالرفض لكل مألوف، والثورة على الطبيعي وهي رد خاص على السؤال الوجودي المحير: ما الإنسان ؟ ماذا يكون؟ وما هو؟ "[3]، فالعقل الكرامي فعل معجزاتي يعتريه الترف الأسطوري الذي يبدو في جوهره بعيدا عن روح الدين، يلجأ إليه الولي هروبا من ضغط الحياة.

ولجوء الروائي إلى هذا النوع من الشخصيات التعبدية، التي منها ما هو خرافي معجزاتي، ليس بدافع هروبي من الواقع، بل بدافع التقرب من الله سبحانه وتعالى، والإخلاص لحبه، فيفرد له أسبابا تميزه عن غيره؛ بأن يحدث فيهم عجبا عُجابا تتمسرح فيه الأحداث، فيأتي في شكل رؤيا، لا حلما مثلما حدث لشخصية الحسن راويا: "رأيت رجلا عليه نور يقول لي: بلّغ

إسلام المرادي كل شيء في حينه، الله لا يهمل أحدا، حان حين القدر، جفت الأقلام وطويت الصحف، الحراش الجزائر العاصمة"[4]، فبالرغم من براثنه الشهوانية الظاهرة إلا أن باطنه نقي.

تمكن الروائي في متنه الروائي أن يمزج بين الخيالي والواقعي في بوتقة سردية، بأن يهب لشخصية حسين إشارة ربانية تنتشله من واقعه المخزي، وتحول نظرته لله تعالى وللحياة وللوجود، لتكون الرؤيا بمثابة معراج روحي لله، يُصلح به الله تعالى عبده "فهو الطريق الواصلة من القلب إلى الله، فإن معرفة الله تتأتى من خلال معرفة الإنسان لنفسه...فكلما اشتغل الإنسان على باطنه وإصلاحه انتقل من مقام إلى آخر عروجا"[5]، فتردد الحسن على الشيوخ لإزالة غموض الرؤيا كان سببا وجيها في معرفته طريق الله، والتقرب إليه والإلحاح عليه، سيما وأن الرؤيا تكررت سبع مرات مُقرّا: "الغريب في أن الحلم نفسه تكرر معي سبع مرات متواليات"[6]، فتكرار هذا الحلم على هذا الرجل العربيد في ظاهره رؤيا "والرؤيا الصالحة جزء من ست وأربعين جزء من النبوة"[7] أي مكانة خصها الله بهذا الرجل الذي لم يكن يعرف الله ولا كرمه ولا حبه، فذرة الحياء التي كانت تختلج صدره حيال رؤيته للتقاة، ومن تنبع منهم رائحة الله كانت كفيلة بأن يسخر الله له من يحتويه ويأخذ بيده إلى الجنة، فكم من شخص عفٍ ظاهره، زكية سريرته، فكيف يخصه الله تعالى بالمنام، وللمنام حسب رأي بعض الشيوخ الذين زارهم، الحلم:" عادة ما يخص به الصالحون وأضنك منهم، والذي فهمته من منامك خيرا سيصيبك"[8].

تبرز رمزية التصوف في هذا المنجز السردي من خلال استنطاق خبايا وأسرار الكون، التي أضفت عليه مسحة تجريبية ساحرة، تولدت إثر الإبحار في علاقة الإنسان بربّه مثلما تجسد في شخصية إسلام المرادي، التي أضنت شبابها في كفل الأيتام، وفي توطيد علاقتها بربها، حتى اعترتها هالة من الكرامة الروحية التي أَجْلَت الجانب الروحي المشع من وجهها، وأبعدتها عن كل الطرق الملتوية، واستنبطت الوعي الإنساني فيها، إذ تكشّف إلهامها الغيبي وأصبحت ترى مالا يراه غيرها وتسمع مالا يُسمع، فقد سمعت دعاء سي الحسن الذي تعلق بها واستمالته شخصيتها وعلاقتها بربها حيث قالت له: " كل دعائك كان يصلني كلمة كلمة وكان يقع على قلبي وأستلذه ولا أحب أن يكتمل... شكرا لك على كل شيء"[9]، فقد أوغل الروائي في الخيال والرمز الصوفي، لاستئثاره بتلابيب السرد الروائي وموسوعيته الفكرية الممتزجة بالأدب والتاريخ والدين والفلسفة، فتتعالق بذلك بالنهج النوراني؛ حيث أخرج الروائي الحسن من براثن التيه والجهل إلى نور العلم والقرآن، في لغة صوفية تنم عن براعة الصياغة وقوة الأسلوب، واستراتيجية استيطيقية تنهل من المرجع

الصوفي، وتؤسس لخطاب وجودي يركز على فاعلية الاتجاه الصوفي واستنطاق مصنفاته، والأخذ من جماليته لتغذية العملية الإبداعية.

ويتجلى ذلك على لسان الشيخ عباسي "ينقذنا الله من أنفسنا حينما لا نقدر عليها فيخطفنا من المسالك المعوجة إلى المسار الصحيح، وذلك بأن ينفث في قلوبنا حبه أو الخشية منه، وقد يكون ذلك بسبب موقف ما أو نصيحة أو منام أو أي شيء آخر، تعددت الأسباب والمسار واحد، والله واحد"[10]، فلذّة حب الله التي تستكنه ذات إسلام عوضتها كل اللذات، لتحول حياة الحسن بطريقة مضادة من الفساد إلى الفلاح، فتتشكل ثنائية ضدية تتمثل في المقدس والمدنس، فقُدُسِية إسلام وورعها وخشوعها في العبادة جعلها في نظرة الحسن أشبه بالأنبياء "فكلامها يشبه كلام الأنبياء أو يشبه بعض الذين خصهم الله ببعض أسراره"[11]، فقد تكشفت عن هذه الثنائية دلالات روحية تثير التماسك في النفس، وتبعث على الطهر والنقاء الذي تشتهيه روح الإنسان المعلق بربه، لتتبدى الثنائية أيضا في الصراع بين الجسد والروح، لمّا استمالته مسعود الضبع صديق الحسن إلى الرذيلة فأجابه "كيف نلقح وهو في قلبي"[12]، فإقبال الحسن على الله ومجاهدته لنفسه دليل على نقاء سريرته، والتنكر لذاته الظاهرية العادية التي تنضوي على جانب مضمر ينفي ظاهره المدنس، وسلوكياته المخزية التي يستحضرها بين الحين والآخر؛ متواترة بين ماضٍ سحيق، ومستشرفة لغد مشرق.

إذ يعتمد الفهم الارتكازي لظاهرة التصوف على الرموز المشحونة بالعجائبية، التي تلامس الجانب الروحي للإنسان، فيرتقي إلى أفكار وهمية لا يدركها إلاّ ذوو الفكر الكرامي "الذي يؤديه الصوفي تحت ضغط المخيلة والإيحاء، والإيحاء الذاتي والاقتناع، والإيمان الذي يخلق في الجسد والنفس قوى غير عادية، ولا مألوفة"[13] تتواشج مع الفعل الروائي لتشكل تجربة روائية يمتزج فيها الفكري بالثقافي، فتنعكس عن ذلك التلاحم رؤية تجريبية للفعل الكرامي في الرواية العربية، سيما الجزائرية منها.

الفعل الكرامي بين التقبل والإنكار:

كثيرا ما تكون للمعجزات أوجه تبهر العقل ما يعجزه عن التصديق، لما له من طابع تجريدي مخالف للواقع، إذ يدفع بالإنسان إلى الإيمان السطحي سيما وإن كان ضعيف الإيمان، فيرى كلَّ مخالفٍ للسير الطبيعي أمر كاذب مشكوك فيه، خاصة وإن كان من كرامات الأولياء، إذ أن الجل ينكر الخرق لغير الأنبياء والمرسلين ويعدونه تجاوزا، إلا أنّ تقسيمات المعجزات تضم الكرامة

التي تعين على الأمور الدينية، فتعد أخف من المعجزات من حيث القدرة، حيث "تترك الكرامة بعد الوقوع في الخطيئة أملا للمريد في إنقاذ نفسه بالاستغفار، والعودة إلى شيخه، فمحو الذنب يتم بالاستغراق في الذكر وتحطيم رغبات الجسم، وانتقام من الذات بالذات، وهدم الذات بواسطة الذات نفسها"[14]، ما يجعل من هذا الفعل الخرقي مدعاة للتصديق، ففيه كشف عن نقاء سريرة الولي أو الذي يلجأ إليه، بدافع الانتشال والإنقاذ.

فلجوء الحسن إلى إسلام مرادي لم يكن إراديا، بل هناك دافع نوراني دفعه إلى ذلك، والذي تجسد في شكل منامة لسبع مرات متوالية، ما أنقذ فيه الاعتقاد الجازم بأن أمرا خيّرا سيغير حياته للأفضل، فلجأ إلى الأئمة والشيوخ يسرد لهم حلمه لعلّه يظفر بتفسير يغير نظرة الناس له، ونظرته لنفسه التي ترسخت للعامة، حتى رجال الدين لم يستطيعوا الفصل بين الظاهر والباطن من روح الإنسان، إذ شخّصه أحد الشيوخ بالفساد قائلا: "يا ولدي العين رسول القلب كل الذي في قلوب الناس يطفو لي على أعينهم إن قذارة وإن طهارة، وأنا حين رأيت عينيك فيها الحرائق والخطايا وكأنه لم يبق فيها شيء لنور الله "[15]،فالحسن لم يكتف بهذا الرأي، بل لجأ إلى منافذ أخرى وشيوخ أخر، علّه يجد خيطا يفك له لغز الحلم الذي راوده، إلى أن نصحه أحدهم باتباع الحلم بحذافيره وهو السفر إلى الجزائر العاصمة، لأن الحسن ابن الصحراء (وادي سوف) "سافر يا بني إلى ربك فأظنه اشتاق إليك"[16]، فالفعل الكرامي جزء من الولاية، إلا أنه يسيّر من السبل ما يجعله أمرا محققا بالرغم من غيبيته، حيث أيقظت دافعية التصدي للفعل الكرامي لدى الحسن بالرغم من عربديته، فسعى جاهدا للبحث عن إسلام المرادي، التي كان يظن أنها رجلا لذكورية اسمها لفظا، فاسمها يوحي بصلاحها.

فالتصديق بكل ما هو كرامي دعا إليه رائد التنظير الصوفي القشيري، وبأنه جائز "لأنه أمر موهوم حدوثه في العقل، لا يؤدي حصوله إلى رفع أصل من الأصول فواجب وصفه تعالى على إيجاده، وإذا وجب كونه مقدورا لله سبحانه وتعالى فلا شيء يصنع جواز حصوله، وظهور الكرامات علامة صدق من ظهرت عليه في أحواله"[17]، فتجلي الفعل الكرامي على إسلام لا يدل على ولايتها وإنما على صدقها واتقادها، فقد قذف الله في صدرها نورا جعلها تبدو من الذين خصهم الله تعالى بحبه واختارهم لصلاح العباد، وتبليغ الفضيلة بعد الأنبياء والمرسلين والأولياء الصالحين، فهي دليل على الكشف وسبيل للسعادة، وثبوتها شرعا ولا مدعاة للشك في ذلك، وهذا ما أقر به الشيخ سعد أبيه: "اعلم أن الكرامة جائزة عقلا ثابتة شرعا، واقعة نقلا، مفيدا

لليقين لبلوغه حد التواتر"[18]، فإقرار العلماء وشيوخ الفقه دليل على ثبوتية الكرامة، وهذا ما تبدى في شخص إسلام المرادي التي تعلقت بالله فنصرها، وفتح لها مغاليق الحياة، "لازلت أحترق عشقا ردحا من الزمن حتى حصل لي من الله أشياء قد لا تصدقها، فأحيانا ينغلق علي فهم شيء فأناجي الله ليلا وأستفتحه وحين أستيقظ صباحا أجد الذي كنت استغلقته قد فتح ونفث"[19]، فالإيمان بالكرامة جائز فعلا؛ لما له من ترميم لشروخ النفوس التي أبت الانفلات من المادية والوهمية، وغرقت في براثن الحياة ومشاكلها، فيلجأ الشخص إلى حملة القرآن وإلى الذين يلوذون على طهر إكراما من الله تعالى لهم، لأنهم يؤمنون بما أتى به أنبياء الله، فتشهد لهم كرامتهم بصدقهم، وثبوتيتها عبر الأعصر، وبأنها منبت حق وصراحة نقل.

فالفعل الكرامي لم يكن جديدا أو مستحدثا، بل كان منذ عهد الأنبياء والمرسلين، مثلما حدث مع السيدة مريم رضي الله عنها، فذكر في القرآن الكريم لقوله تعالى: "فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ"[20]، فقُدسية السيدة مريم دليل على ولائها لله تعالى وكرامتها، بأن خصّها الله برزق تنفع به غيرها وتتصدق به، كذلك شخَّص الروائي كرامة إسلام المرادي التي عُرِفت بصلاح أعمالها وتصيير الخير لها، فتُؤْثِر غيرها على نفسها؛ ولو كان بها خصاصة مُقرَة: "مرة سألتني عجوز متسولة شيئا، وحزّ في نفسي أنني لا أملك شيئا حينها...تمنيت لو أن لي شيئا من المال أدفع به عوزها، فما أن مسّت كفي ظاهر جيبي، حتى أحسست أن في جيبي ورقة فأخرجتها إذا هي ورقة ألف دينار... وكنت على يقين تام أني لم أحمل معي شيئا من المنزل ذلك اليوم"[21]، وهذا دليل على جواز الكرامة من غير ادعاء، والتصديق بها مطلوب سيما في هذا الوقت.

أما الذين يحوزون على رخص تكذيب الكرامة، التي تجاوزت فكرة التصديق؛ بل تعدت أن تكون مجرد افتراء وشعوذة لدى الكثيرين، لما لها من التباس بالخروقيات ونواقض المألوف، سيما أنصار المعتزلة، الذين نعتهم البغدادي، حيث "أنكرت القدرية كرامات الأولياء لأنهم لا يجدون في أهل بدعتهم كرامة"[22]، فإنكار الكرامة من الأولياء فما بالك بأناس عاديين لهم من الطهر والنقاء ما جعلهم يؤثّرون في غيرهم، كتأثير إسلام المرادي في الأطفال الذين تحبهم وتؤثرهم على نفسها، فقد اعتبروها أمهم، بالرغم من أنها لم تتزوج "فقلوب الأطفال لا تصل إلا لمن فيه شيء من رائحة

الله"[23]، فالحكم على الصلاح دليل على القرب من الله، والكرامة المبالغ فيها أمر غير معقول كإحياء الموتى مثلا، لأن هذه الصفة خصها الله بالأنبياء والمرسلين كمعجزات، وهي فعل إلهي.

لذا فالكرامة "هي استقامة العبد مع ربه في الظاهر والباطن وكشف الحجاب عن قلبه...حتى عرف مولاه، والظفر بنفسه ومخالفة هواه، وكل كرامة لا يصحبها الرضى عن الله ومن الله فصاحبها مستدرج مغرور أو ناقص أو هالك أو مبتور"[24] إذ لا يمكن إنكار وجود الكرامة حسية كانت أو معنوية، فبالرغم من إنكار البعض لذلك إلا أنه فعل حتمي ينتفع به الإنسان، وهذا ما تجسد في ذات إسلام المرادي التي كانت تسمع ما لا يُسمع، حين سمعت دعاء الحين وهو بعيد عنها، ما جعله يحس بالغرابة والعجب معترفا: "أحسست أني داخل زمن عجائبي كيف عرفت هذه بدعائي لها، وقد كانت معلقة بين الحياة والموت...يا سي حسن إنّ الذي حلّ عقدة لسانك، فانفرط منه الدعاء، هو الذي حلّ عقدة سمعي ، فأسمعني ما لا يسمع"[25]، فقوة إيمان إسلام المرادي واستقامتها الباطنية والظاهرية استمالت حسن وجعلته يتعلق بها، ثم يطلبها للزواج فكلامها "يسبقه التنوير هو تأثيره في القلوب وتهييجه الأرواح وتشويقه الأسرار، فإذا سمعه الغافل تنبّه، وإذا سمعه العاصي انزجر وإذا سمعه الطائع زاد نشاطه وعظم شوقه، وإذا سمعه السائر طوى عنه تعب سيره...فالكلام صفة المتكلم، فإذا كان المتكلم ذا تنوير وقع في قلوب السامعين، وإذا كان ذا تكدير حدّ كلامه آذان المستمعين"[26] ، فعلاقة إسلام بربها أزاحت عنها غشاوة الشر، فصارت لا ترى إلا كل شيء جميل تحاكي ربها، تتضرع له، تناجيه فيقبل نجواها ويستجيب دعاءها.

فعنوان المتن السردي صعبت مغاليقه، واستحالت منافذه، فارتأى الروائي أن يلج هذا الباب في محمل صوفي، لتكون الكرامة إحدى سبله للغوص في كنه الذات الإنسانية وروحانيتها، تتنزه بين ساحاتها كمن يسري إلى السماء السابعة، فقد كانت روح إسلام تتجول بين جسمها وخالقها؛ كلما أقامت الليل ودعت بدعاء ظنته مستحيلا "كان ذلك الكلام يعرج بي إلى السماء كلما سمعت أكثر ازددت عروجا والتذاذا، وشعرت أن نشوة تسري في جسدي فهي تجدده وتحييه"[27]، فصفة رفع الحجب هي التي خصها الله بإسلام كتهذيب للنفس مرضاة لله والسير في طريقه، ولذة الحب لله التي عاشتها كفلسفة روحية مناجية: "كل ليلة كنت أحكي له عن كل شيء، كل الذي يفرحني وكل الذي يحزنني، وكل ما فهمته وكل ما يحيرني وكل ما أحببت، وما أبغضت ... وكنت حين أنهي كلامي أنغمر في راحة كبيرة أحس كالذي يحس به من أسلم مفاتيح شيء ثمين كان يحرسه، والحقيقة أنه كان يحرسني، ويحرس الشيء الثمين الذي كنت أحرسه"[28]،

فهالة القدسية التي خيمت على نفس إسلام تؤمن بأن لها أفعالا خروقية تنبئ بالكرامة التي تسمو بالروح عن الجسد، والتي أنمت عن إيديولوجية الكاتب وتوجهه الديني وإثباته أن الفعل الكرامي لازال قائما ليومنا هذا ولم ينته، سواء كانت الشخصيات الروائية حقيقية أو متخيلة تعانق العالم العجائبي، لتكون شخصية إسلام المرادي مركز العملية السردية وبؤرة الكرامة الصوفية، فيتجاوز ذلك العالم القوانين الطبيعية، ويضيق العقول لما له من بعد خوارقي وصبغة مدهشة فوق طبيعية، يضطلع إلى تطهير النفس البشرية من أسمال المادة وملذات الجسد، التي تمثلت في شخصية الحسن وصديقه، ليعتبر الحسن ويعود إلى الله خاشعا متوسلا بعد السمعة السيئة التي أُلبست به،

فتتجسد بذلك ثنائية المدنس والمقدس، اللتين ارتأى الروائي من خلالها إلى تجسيد واقع صعب الإفلات منه، بالإضافة إلى الوظيفة الحجاجية التي مكنت الحسن من العودة إلى طريق الصواب ما أحدث جانبا استيطيقيا يتراوح فيه القارئ بين الروحي والجسدي، وبين المقدس والمدنس، لتتغلب كفة الروحي على الجسدي لأنه المحرك الأول، وتنكشف كفة المدنس من خلال عوالم الكرامة التخييلية، التي كانت دروسا إصلاحية يمكن الركون إليها والاعتماد عليها، مادام أنّ القرآن الكريم قد أقرّ بذلك في العديد من المواضع.

العجائبية في الفعل الكرامي لرواية ما تشتهيه الروح:

يعد الفعل الكرامي من الخوارق التي تنافي المعقول والمألوف، وقد عُدّ هذا المظهر التجريبي جواز سفر للعمل الروائي الجديد، لما له من رسوخ في أدبنا العربي، كطابع عجائبي "ينطلق مخترقا حدود المعقول والمنطقي والتاريخي والواقعي، ومخضعا كل ما في الوجود من الطبيعي إلى الماورائي لقوة واحدة هي قوة الخيال المبدع المبتكر، الذي يجوب الوجود بإحساس مطلق بالحرية المطلقة، يعجن العالم بما يشاء، ويصوغ ما يشاء، غير خاضع إلا لشهواته ولمتطلباته الخاصة، ولما يختار هو أن يرسمه من قوانين وحدود"[29] تدخل القارئ في دائرة الحيرة، فتعجزه عن الإيمان بها، لتجاوُزِها المعقول والمنطقي الذي غالبا ما يتجلى في الشخص الكرامي، الذي بفعله يتحقق أمرا عجائبيا أقرب للحكايا الخرافية، التي جرت مع إسلام المرادي في هذا المتن السردي، المستلهمة من أمها، التي تحوز على فراسة قوية تستشرف المستقبل حتى وإن كان بعيدا، وهذا ما أدْلَتْ به إسلام للحسن: "أتعرف شيئا، أمي كان لها فراسة قوية فقد أخبرتني أنها حين أغمي عليها واستفاقت فحملناها أنا وأنت، وكانت تنظر إلينا بالعدل نظرة لك ونظرة لي، قالت لي دون مقدمات حين استفردت بي في العزلة، هو زوجك يا بنيتي صدّقتها وفرحت مرتين، مرة لأن مسارك المعوج

سيستقيم، ومرة لأني اشتهيتك عندما رأيتك"[30]، فقد تجلت النظرة العجائبية التي تثير تعجب القارئ، في هذه الأفعال القولية النابعة من إسلام وأمها، بأن خصها الله بهذه الملكة الكرامية، التي تبعث على الجدل بأحقية حدوثها من عدمه، سيما وإن صدرت من شخص غير ولي، فالولاية أمر مؤكد لها بالكرامة، أما أن تصدر من إنسان عادي ففيه جانب أسطوري يستعصي التصديق والإيمان، سيما وإن تعلق الأمر بأشياء تفوق قدرات البشر وأخيلتهم.

فصفة الولاية لم تكن شائعة بالأمر المبالغ فيه لدى إسلام، إلا أنها أمر روحاني، بأن خصها الله لتهدي الحسن عن طريق حلم ساقه إليها وهو الرجل العربيد، فصفة الصلاح لديها جعلتها ترتقي أعلى المراتب في علاقتها بربها وجوهر روحها، وبالتالي فأفاعيلها صُنّفت في خانة اللامعقول؛ لمخالفتها للواقع وغرابة حدوثها واختراقها للحواجز، وكونها من خيار المسلمين ميزها الله بجوهر الكرامة، التي وضعت حكاياتها في صنف العجائبية المتنافية والمخزون المعرفي للذات الإنسانية، و"يتشابه القصص الديني المبثوث في كتب التفسير القرآني مع الكرامات في جوانب عديدة، فالبطل هنا وهناك خارق بقدراته وبسلوكه، يهدف للهداية وينتصر على كل المعيقات"[31]، فلا يمكن للكرامة مهما تنامت عجائبيتها أن تنسلخ عن سياقها الثقافي والديني، فاشتراك الكرامة بالعجائبية هو إشاعة لما هو مثالي ومقدس وملامسة الحقيقة المطلقة مهما كان المنظور متباينا، المعقولية مضمرة، إلا أن الكرامة شديدة المساس مع الواقع الخارجي، ففيها قطاعان؛ "الواعي حيث يسود الفكر والوضوح واللاوعي، حيث المضمر والمقنّع والرمزي، وهما عالمان؛ عالم الوقائع الخارجية التي تجري فعلا وتحصل أمام العين، وعالم التجارب الصميمية التي يفصح عنها بواسطة الرموز لكن المحتوى الخارجي، الواعي، الواقعي يتوازى مع المحتوى المضمر للكرامة"[32]، وكلها عناصر اشتملت عليها الكرامة في المنجز السردي.

فجل الأفعال الكرامية التي تجاوزت الطاقة الفكرية في الرواية هي أقرب للواقع؛ إلا أن طابعها خروقي مناقض للعادة ولأفهام البشر، مثلما حدث مع أم إسلام التي تنبأت بمستقبل ابنتها مع الحسن، بالإضافة إلى سماع ما لا يسمع وهو ما انجرّ عن إسلام، التي تحوز على حديث مقارب للحديث النبوي، حين يعجز سامعه عن استيعابه، حيث خُصت إسلام بكريم قول وحسن لفظ يثيران الدهشة في النفس، فحين تنتهي من قوله تتعجب كيف بدر منها ذلك، ففي حديثها مع الحسن أبهرته بأحاديث غيرت مسيرته للأحسن، ما جعلها هي ذاتها تندهش منه: "إن الكلام الذي سمعته مني وأثر فيك، ما كنت أتكلّفه وإنما كان يخرج مني سليقة، وكأن أحدا يمليه

عليّ، ولا أُخفي عليك أني حين أُنهي ذلك الكلام أتعجب من نفسي كيف أخرجته، فلست معتادة على مثله، واستقر في ذهني أن الذي كنت أقوله هو شيء يشبه الوحي أجراه الله على لساني"[33]، فكل هذه الخروقات هي تجاوز للفعل الطبيعي، والقول المعقول وهو صفة كرامية خص بها الروائي إسلام المرادي، ليحاول إثبات أن الكرامة أمر مرتبط بالدين لما له من قداسة، كما أنه متنفس ثقافي إنساني، أثبته الصوفيون، إلا أنه لم يرتبط بهم، بل خُصت به الثقافات الشعبية، واعتنى به رجال الأدب والثقافة، فصار مظهرا تجريبيا يزيد من القيمة الفنية والإبداعية للمنجز السردي، كما ينتقل بالقارئ من المعقول إلى اللامعقول في فضاء خرافي يبعث على التشويق والإثارة.

وقد تعددت مظاهر الخوارق الكرامية لدى إسلام ودرايتها بالأسرار معترفة للحسن: "قلت لك فيما مضى أن الله أحيانا يصيب عبده بقدرٍ، ظاهرُه شرٌ وباطنه خيرٌ، وقد فعل معي..فقد أطلعني هذه المرة على أسرار مكتّمة كان بيني وبينها ألف حجاب، كما أطلعني على شيء من أسرارك...استحييت أن أسألها عن الأسرار ...فقالت وقد شعرت بما يدور بداخلي، أسرار الله تطوى ولا تروى"[34]، وهذا ما زاد من قوة الفعل العجائبي، بأن يعلم الإنسان الكرامي بأسرار غيره حتى وإن لم يصرحوا بها، فهذه أشبه ما تكون معجزة، وتعد من أهم النماذج التي استدلّ بها الروائي في متنه السردي على وجود الكرامة بالرغم من حجج نفيها وتهوينها؛ سيما الكرامة المعنوية القولية، لتبقى الكرامة أمرا قُدُسيا إصلاحيا، لا بد من الاعتراف به وتصديقه حتى وإنْ بدا غريبا.

خاتمة:

من أهم الظواهر التي تهذب النفس لارتباطها الوثيق بالدين وارتكازها على كل ما هو إصلاحي ومقدس الكرامة التي تعد "ابنة مجتمع ارتبطت بتطوره، وما انفصلت قط – ولا أبدا- عن الظواهر والحوادث الاجتماعية والاقتصادية لا تؤخذ بمعزل عن العوامل الثقافية، ولا عن النتاج الفلسفي الشعري، ولا عن الأدب الشعبي، والعلوم اللسانية والدينية وشتى اتجاهات التفسير القرآني"[35]، جسدها الروائي في شخص امرأة طاهرة نقية استطاعت أن تقلب حياة عربيد من السيئ إلى الأحسن وتهدي سبله، وهو فعل نبوي إصلاحي، لذا حث عليها ديننا الحنيف وأعطى نماذج حية في قرآننا الكريم، لتبقى الكرامة تلك الرسالة المستمرة التي تبعث على إثبات القول، فكثيرا مَنْ لا يؤمن إلا بما يرى ليطمئن قلبه، فهي رؤية حياتية وفكرة إصلاحية معراجية

غايتها السير إلى الله والانتقال إلى مقامات عليا تشتهيها الروح، مستمدة من حكايات تلغي التوتر وتنقذ النفس بالدعوة إلى الله وتنظيم الواقع بطرق لا منطقية تبعث على الانبهار ومحاسبة النفس.

ومن جملة النتائج المتوصل إليها:

- الفعل الكرامي إيديولوجية تقويمية لا يمكن إنكارها مهما تعددت الأقاويل.
- تمثل الكرامة كاتجاه صوفي إضاءة تجريبية يتخذها الروائي كتيار رؤيوي، يسوّغ لدلالات فنية تستسيغ المتلقي.
- الاعتماد على التجربة الصوفية دليل على استلهام إيحاءات ترميزية من الواقع الديناميكي.
- تجسدت ثنائية المدنس والمقدس؛ اللتين يرنو من خلالها الروائي إلى تجسيد واقع استحالت مغاليقه، ولا بد من الانتقال بالقارئ من الواقعي إلى الخروقي في فضاء يبعث على الاستثارة.
- يتجلى النسق المتواري في المتن السردي من خلال قلب الكبت والقهر المشحون بالرفض لكل مألوف، ومجابهة كل ما هو طبيعي.

هوامش:

[1] بوشوسة بن جمعة، اتجاهات الرواية في المغرب العربي، المغاربة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، تونس، 1999، ص، 01.

[2] زدادقة سفيان، الحقيقة والسراب –قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس مرجعا وممارسة، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، (د ط)، الجزائر، 2008، ص 209.

[3] علي زيغور، الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، القطاع اللاوعي في الذات العربية، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 1977، ص 34.

[4] عبد الرشيد هميسي، ما تشتهيه الروح، دار الجزائر تقرأ للنشر، د ط، الجزائر، 2017، ص 17.

[5] محمد أبو رمان، أسرار الطريق الصوفي -مجتمع التصوف والزوايا والحضارات في الأردن، عالم الفكر للطباعة، د ط، الأردن، 2022، ص 27.

[6] عبد الرشيد هميسي، ما تشتهيه الروح، ص 17.

[7] عبد الرشيد هميسي، ما تشتهيه الروح، ص 19.

[8] عبد الرشيد هميسي، ما تشتهيه الروح، ص 20.

[9] عبد الرشيد هميسي، ما تشتهيه الروح، ص 78.

[10] عبد الرشيد هميسي، ما تشتهيه الروح، ص 21.

[11] عبد الرشيد هميسي، ما تشتهيه الروح، ص 75.
[12] عبد الرشيد هميسي، ما تشتهيه الروح، ص 90.
[13] علي زيعور، الكرامة الصوفية والأسطورة، ص 145.
[14] علي زيعور، الكرامة الصوفية والأسطورة، ص 143.
[15] عبد الرشيد هميسي، ما تشتهيه الروح، ص 21.
[16] عبد الرشيد هميسي، ما تشتهيه الروح، ص 22.
[17] النبهاني، جامع كرامات الأولياء، ط1، مطبعة الحلبي، مصر، 1962، ص 97.
[18] سعد أبيه، كشف اللبس عن المسائل الخمس، مخطوط بوراقة إسماعيل بنواكشوط، نقلا عن محمد بن أحمد المحبوبي، الكرامة الصوفية وثالوث الإنبات والإثبات والإخبات، مجلة الذخيرة للبحوث والدراسات الإسلامية، جامعة غرداية، قسم العلوم الإسلامية، الجزائر، مج 5، ع2، 2021، ص 276.
[19] عبد الرشيد هميسي، ما تشتهيه الروح، ص 56.
[20] سورة آل عمران، الآية 37.
[21] عبد الرشيد هميسي، ما تشتهيه الروح، ص 56.
[22] اللالكائي، كرامات أولياء الله، تر: أحمد سعد حمدان، دار طيبة، ط1، الرياض، 1992، ص 18.
[23] عبد الرشيد هميسي، ما تشتهيه الروح، ص 72.
[24] أحمد عجينة الحسين، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، دار المعارف، د ط، القاهرة، د ت، ص 397.
[25] عبد الرشيد هميسي، ما تشتهيه الروح، ص 78 -79.
[26] أحمد عجينة الحسين، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ص 402.
[27] عبد الرشيد هميسي، ما تشتهيه الروح، ص 63.
[28] عبد الرشيد هميسي، ما تشتهيه الروح، ص 55.
[29] الكندي أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق وتقديم وتعليق، معمد عبد الهادي أبو ريدة، مطبعة الإحسان، ط2، مصر، 1978، ص 116.
[30] عبد الرشيد هميسي، ما تشتهيه الروح، ص 101.
[31] علي زيعور، الكرامة الصوفية والأسطورة، ص 31.
[32] علي زيعور، الكرامة الصوفية والأسطورة، ص 11.
[33] عبد الرشيد هميسي، ما تشتهيه الروح، ص 95.
[34] عبد الرشيد هميسي، ما تشتهيه الروح، ص 79.
[35] علي زيعور، الكرامة الصوفية والأسطورة، ص 23.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أحمد عجينة الحسين، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، دار المعارف، د ط، القاهرة، د ت.

2. بوشوسة بن جمعة، اتجاهات الرواية في المغرب العربي، المغاربة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، تونس، 1999.
3. زدادقة سفيان، الحقيقة والسراب –قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس مرجعا وممارسة، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، (د ط)، الجزائر، 2008.
4. سعد أبيه، كشف اللبس عن المسائل الخمس، مخطوط بوراقة إسماعيل بنواكشوط، نقلا عن محمد بن أحمد المحبوبي، الكرامة الصوفية وثالوث الإنبات والإثبات والإخبات، مجلة الذخيرة للبحوث والدراسات الإسلامية، جامعة غرداية، قسم العلوم الإسلامية، الجزائر، مج 5، ع2، 2021.
5. عبد الرشيد هميسي، ما تشتهيه الروح، دار الجزائر تقرأ للنشر، د ط، الجزائر، 2017.
6. علي زيغور، الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، القطاع اللاوعي في الذات العربية، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 1977.
7. الكندي أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق وتقديم وتعليق، معمد عبد الهادي أبو ريدة، مطبعة الإحسان، ط2، مصر، 1978.
8. اللالكائي، كرامات أولياء الله، تر: أحمد سعد حمدان، دار طيبة، ط1، الرياض، 1992.
9. محمد أبو رمان، أسرار الطريق الصوفي -مجتمع التصوف والزوايا والحضارات في الأردن، عالم الفكر للطباعة، د ط، الأردن، 2022.
10. النبهاني، جامع كرامات الأولياء، ط1، مطبعة الحلبي، مصر، 1962.